فضل العرب[1]

على المدنية الحديثة

نقل حسن السلمان

مدير منطقة معارف البصرة

الى العصر الذهبي

دام العصر الذهبي للثقافة العربية زهاء خمسة قرون . فقد بزغ فجره في اوائل القرن التاسع وأفل نجمه بنهاية القرن الثالث عشر للميلاد . وأضاء نور هذا العصر جميع ما افتتحه العرب من بلاد ومن أمصار . فكانت الثقافة العربية تهيمن على بلاد فارس شرقاً حتى ساحل الاطلنطيق غرباً، وكان المسلم يتكلم العربية سواء أفي تركستان كان ام في بلاد الاسبان . وهذه الثقافة وان كانت عربية في لغتها الا انها لم تكن عربية في أصولها ذلك لان العرب عندما كانوا يستوطنون صحارى الجزيرة وبواديها لم يكونوا على شيء من الثقافة والعلم ولم تكن آدابهم من السمو والرفعة كما كانت عليه في العصور الاسلامية . الا ان ابن البادية على جهله العلمي وفقره الثقافي كان شجاعاً مقداماً لا يخشى الموت ولا يفزعه الهلاك ولا يرتضي عيشاً بذل . يندفع الى الغزو ويمتاز على غيره بفروسيته وغيرها من فنون الحرب . وكان شعر العرب في جاهليتهم مقتصراً على وصف الطبيعة والحياة البسيطة والفروسية والقتيب والنسيب ولذلك كان لزاماً على العربي ان يرتاد بلاد العراق والشام كي ينال نصيباً من الثقافة العامة والتمدن

لقد خرج العرب زمن جاهليتهم من بطاح الجزيرة الى اودية الرافدين وبردى . وأسسوا دويلات صغيرة متاخمة لصحاري بلادهم الاصلية . الا انهم لم يتمكنوا من التوسع والتوغل في البلاد المجاورة لبلادهم . ويعزى السبب في ذلك الى عاملين اساسيين . احدهما ان العرب ما كانوا يشعرون شعوراً وطنياً موحداً . والآخر انه لم يكن هناك وازع يدفعهم الى الفتح والى التوسع . ولقد أوجد النبي العظيم صلى الله عليه وسلم بعد ذلك للعرب هذين الدافعين — الشعور بضرورة الالفة والاتحاد والشعور بلزوم الفتح والتوسع . ووفق النبي العربي الى لم شعث القبائل العربية المشتتة المتنازعة والى التأليف بين قلوبهم المتنافرة فما أن أكمل تبليغ الرسالة التي كان يحملها اليهم والى

---

(١) للاستاذ شارلي لين بول استاذ اللغة العربية بجامعة دبلن سابقاً ومؤلف كتاب « الفن العربي بمصر » وكتاب « المجتمع العربي في القرون الوسطى »

العالم بأسره حتى اندفعوا اندفاع السهم لتحقيق الاهداف التي وضعها لهم

وفي الصحراء وان كان شكوكيًّا ، غليظ القلب ، ضيق التفكير ، لا يكترث للعاديّ من الأشياء الا ان الاسلام ببساطة تعاليمه وبلغ تأثيره ، وبما وعد به الصابرين من اتباعه من جزاء ، أثار الشوق في عليه والحماسة في نفسه ، فما ان سمع المنادي ينادي « الله اكبر » حتى اندفع الى الجهاد في سبيل الله وفي اعلاء كلمة الاسلام دون أن يخشى موتاً أو هلاكاً . ولقد كان لنداء « الله أكبر » في قلوب العرب المجاهدين وقعٌ دونهُ وقع أعظم موسيقى في نفوس الجيوش المحاربة . ومهما يقل في الدوافع للفتح الاسلامي فان منادي، الدين الجديد وتعاليمه كانت أقوى الدوافع وأشدها تأثيراً في نفوس أتباعه

وهناك دافع آخر لا يقل عن الدافع الديني تأثيراً ذلك هو الرغبة في القضاء على سيطرة الروم والفرس ، واستلاك ما كانا يكنزانه من ذهب ومن مال . فقد شعر العرب بما أصاب كلاً من مملكتي الفرس والروم من وهن ومن ضعف ، وبعظم ما كانت تحتويه هاتان المملكتان من ثروة ومن غنى . فلم يمض عشرون عاماً على بدء فكرة الجهاد والتوسع الاسلامي حتى وجد العرب انفسهم سادة في مملكتي قيصر وكسرى تدين لهم ثقافات غير متماثلة مستمدة من فلسفات اليونان ومن شرائع الرومان بينما العرب لا يتكلمون الا العربية وليس لهم الا كتاب واحد يستمدون منهُ علمهم وثقافتهم وشرائعهم . فقلب العرب الكبرياء وملأت زهوة النصر قلوبهم فصاروا ينظرون الى الأقوام التي دانت لهم نظرات احتقار وازدراء غير عالمين ان هؤلاء الذين استعبدوهم بسرعة سيتغلبون عليهم بعلمهم وبفلسفتهم بسرعة كذلك

ومضى شطر كبير من القرن الأول على الفتح الاسلامي والعرب لم يغيروا ما بأنفسهم فلم يتغير ما في البلاد التي كانوا يحكمونها . الا ان الأمويين بعد ما نقلوا مركز حكمهم من المدينة المنوّرة الى دمشق الشام أخذت نظراتهم الى الحياة تتبدّل رويداً رويداً . فأدركوا ان اجبار غير المسلمين على الدخول في حوزة الاسلام يؤدي الى قلة واردات بيت المال والذلك تركوا الطوائف غير المسلمة وشأنها تتبع ما تشاء من الأديان وتقيم الشعائر التي اعتادت أن تقيمها قبل الفتح والمسلمون لا يتعرضون لهم في شيء ما دام هؤلاء يدفعون ما عليهم لبيت المال . وبلغ بالخلفاء التسامح أن أجازوا لغير المسلمين اعادة فتح مدارسهم القديمة ومحاكمهم كما كان شأنها قبل الفتح الاسلامي ذلك لأن الخلفاء وجدوا ان الاحكام المستمدة من القرآن وحده لا تكفي لحسم القضايا المتنوعة بين الناس — المسلمين منهم وغير المسلمين ، فلم يجدوا بدًّا من الرجوع الى الشرائع الرومانية يستمدون منها ما يمكنهم من وضع حدود لما ينشأ من خلاف بين ابناء البلاد الاصليين انفسهم وبينهم وبين المسلمين[1]

(١) المقتطف وان لا يتحملان تبعة الآراء المطروحة في هذه الفقرة من المقال وانما هي تعرض هنا على أنها رأي يجب ذكره

بهذه النكبة عهد الخلفاء الأمويون السبيل الى العصر الذهبي الذي أخذ عجبه يتألق في أفق سماء الاسلام . ففتحوا أبواب قصورهم للشعراء والندماء . وأسرف بعضهم فلم يتورع عن معاقرة الخمر — التي حرّم الله شربها بالسر والعلانية وجمّعوا حولهم أهل الطرب والانس وجاؤا بالقيان والغانيات من بلاد فارس وبلاد الروم . وسمحوا لاهل البلاد الاصليين ان ينصرفوا الى دراسة العلوم والفلسفة واستخدموا اولي المعرفة منهم في التدوين والكتابة والحساب وفي جميع أعمال الدولة . وقد ارتضوا في بادىء امرهم ان يستعمل هؤلاء لغتهم الاصلية في الكتابة وفي التدوين وان يتداول الناس النقود الرومانية القديمة . ولكن لم يمض طويل وقت على ذلك حتى حلت اللغة العربية محل اللغات الاجنبية في دواوين الحكومة وضربت النقود باسماء الخلفاء مما اضطر اهل البلاد الاصليين لتعلم اللغة العربية — لغة حكام البلاد — لكي يتسنى لهم في وظائفهم او لكي يحافظوا على مراكزهم لدى الخلفاء وفي المجتمع . ولقد دخل معظم هؤلاء الدين الاسلامي اما مخلصاً من الجزية او ليكونوا والمسلمين على صعيد واحد . وما ان انتهى القرن الاول للفتح الاسلامي حتى كانت الاكثرية الساحقة من المسلمين مزيجاً من أقوام غير عربية بينهم المصري والسوري واليوناني والبربري والاسباني وقد صهرت هذه الاقوام جميعاً في بوتقة واحدة هي بوتقة الاسلام

تأثير القرآن

ولما كان الحكام والامراء من أبناء اولئك الذين ارتحلوا من صحارى الجزيرة وبطاح الحجاز تعذر عليهم التخلص مما تأصل في نفوسهم من عادات بدوية ونزعات جاهلية . فقد ظل العرب يميزون انفسهم من غيرهم من المسلمين بعراقة اصلهم ونبل منحدرهم وبأصيل شرفهم . وهذا ما حدا ببعض المسلمين من غير العرب الى حفظ القرآن ودراسة تعاليم الاسلام دراسة وافية والى حفظ اشعار العرب من الجاهليين ، غيرهم حتى بلغ بهم الاندفاع أن اتخذوا لانفسهم اسماء عربية فادعى بعضهم انحداره من اصل عربي نزح عن الجزيرة قبل الفتح الاسلامي بكثير . ولا ينكر ان الفضل في تنقل الروح العربية في نفوس المسلمين يرجع الى حفظهم القرآن والى تلاوته في اثناء الصلوات الخمس وفي غيرها من الاوقات . فاللغة العربية بشد القرآن أزرها ألفت بين ابناء آسيا وافريقيا واسبانيا الا ان هذا التأليف على حسناته أضعف شوكة العرب ومكّن الشعوب الاجنبية من مزاحمة حكام البلاد في ادارة دفة المملكة . فالذين دخلوا في الاسلام وحفظوا القرآن وتفقهوا في أصول الدين صارت لهم مكانة في المجتمع لا تقل عن مكانة العرب انفسهم . وان الذين عدم تفريقه بين العرب وبين غيرهم من المسلمين فسح المجال امام غير العرب لمنازعة حكام البلاد في سلطانهم . ومما زاد في شكيمة المسلمين غير العرب أن تعاليم اليونان

وفلسفتهم وجدت منفذاً الى الاسلام عن طريق فارس والاسكندرية وكان تأثير هذه التعاليم في المسلمين سحرياً

لم تستطع بزانطية القضاء على تقاليد اليونان وتعاليمهم التي ورثها عنهم الرومان عندما اكتسحهم روما . فقد ظلت تعاليم اليونان مستقرة في مصر وفي سوريا وفي بلاد فارس خاصة ثم ان ملوك فارس فتحوا ابواب بلادهم للسائرة الفارين من عذاب بزانطية وشجعوا لهم بتأسيس مدرسة جنديسابور حيث كانت تدرس فيها فلسفة اليونان وتعاليمهم جنباً الى جنب مع فلسفة الهنود وعلومهم الطبية . وكان الخلاف اللاهوتي الذي أدى الى انقسام الكنيسة الى شرقية وغربية ، عاملاً هاماً في دراسة الفلسفة اليونانية ولا سيما فلسفة ارسطو للاستعانة بها في المناظرات المذهبية وفي المناقشات الدينية . وكانت مدارس سوريا تهتم بترجمة تعاليم ارسطو الى اللغة السريانية بما كانت مدارس الاسكندرية معنية بدراسة الفلسفة الافلاطونية الحديثة

العرب في فارس

ولما كانت دمشق الشام ، عاصمة العرب ، بعيدة عن بلاد فارس لم يستفد العرب من الثقافة الفارسية بادىء ذي بدء الا ان انتقال الحكم من ايدي بني امية الى أيدي بني العباس . واتخاذ بغداد عاصمة للمملكة أدّى الى اقتراب العرب من الفرس والى تسرب الثقافة الفارسية الى اللغة العربية . ففي عام ٧٥٠ للميلاد تغلب العباسيون على أعدائهم من بني امية فحازوا الحكم وبعد ذلك باثني عشر عاماً شيد المنصور مدينة بغداد لتكون عاصمة للمملكة . ومنذ ذلك الحين أخذت الثقافة العربية تتغير تغيراً سريعاً . ومما زاد في سرعة هذا التغير ان سمح الخلفاء لابناء فارس بتولي وظائف الدولة فاعتلوا بها حتى وصلوا الى كرسي الوزارة فالصدارة . وأشهر من تولى هذا المنصب البرامكة الذين كانوا عاملاً هاماً في خلق عصر هارون الرشيد الذهبي

ولا يعزى الفضل في تطور الثقافة العربية وفي رقيها الى هارون الرشيد وحده بل الى ولده المأمون كذلك . ويعتقد بعض المؤرخين ان حب المأمون للعلم يعود الى ان والدته من اصل فارسي وان نشأته الاولى كانت فارسية . لهذا شبَّ وهو توّاق لدراسة العلم وللكشف عن اسرار المعرفة . وأعظم ما نهض به خلفاء العائلة العباسية شجع دراسة الفلسفة اليونانية والعلوم الفارسية واهتم اهتماماً كبيراً بامر ترجمة علوم اليونان الى اللغة العربية فكان من أثر ذلك ان بنيت علوم الكلام على أسس الفلسفة اليونانية

ولم يكن قصر المأمون بمكتبته الواسعة ومرصده الكبير وحده معهداً للعلم وموطناً للفلسفة ومركزاً للمعرفة . فقد كانت جميع قصور الامراء معاهد للتقاش العلمي وللمجادلات الكلامية . ومن المؤسف حقاً ان هذا المجد العلمي العظيم لم يدم طويلاً فلم تمض بضع سنين على وفاة

المأمون حتى دب الخلاف بين الخلفاء وبين الولاة والامراء في المملكة وأخذ كل يسعى الى القضاء على الآخر فاضمحلت المملكة فريسة بين أيدي الاتراك الذين لم يكن لهم نصيب من العلم والثقافة . وهذا العصر الذهبي وان كان قصير الأمد الا ان أثره في العالم الاسلامي كان عظيماً جداً . فقد خلق مدنية فاقت ما تقدمها من مدنيات . ومن محاسن الاتفاق ان هذه المدنية العربية أسست دعائمها على ضفاف نهر عظيم يتصل بالبحر فيسهل الاتجار مع بلاد الشرق والغرب . فكان خزف الصين وتوابل الهند وفراء بلاد الروس وجلود بلاد اوربا تباع في أسواق بغداد، وكانت نقود الخلفاء تتداولها أيدي الناس في بلاد غير مسلمين . ومما يدل على سعة انتشار التجارة العربية في العصر الذهبي ان بعض الأوربيين اكتشفت مؤخراً طائفة من النقود العربية المضروبة في بغداد المكتوبة بالخط الكوفي ، مطمورة في احدى الخرائب في اسكندناوه . وان رحلات السندباد البحري وان كانت خرافة لا يصح الاعتماد عليها الا انها تصور شغف العرب بالاسفار وبالتجارة

ولم تكن بغداد في زمن عزها مركزاً للرخاء المادي فحسب بل كانت ينبوعاً للعلم ومورداً للثقافة العربية . فتاريخ الحضارات لا يعرف حركة ثقافية أشد وأعظم من تلك التي نشأت في البلاد الاسلامية زمن عصرها الذهبي . واقبال المسلمين ، خلفائهم وأمرائهم ، خاصتهم وعامتهم على تعلم العلم والفلسفة لم يكن له مثيل من قبل في التاريخ . فقد كان تهافت طلاب العلم في جميع انحاء البلاد الاسلامية على بغداد وغيرها من مراكز التعليم أشد وأكثر من تهافت طلاب العلم على جامعات اوربا واميركا في هذه الايام . ففي المساجد وهي جامعات المسلمين وكلياتهم كان يجتمع عدد عظيم من سحر عقولهم التعليم وجذبهم التثقيف فجاءوا ليستمعوا لمحاضرات الاساتذة في الفقه وفي التشريع والفلسفة وفي الطب والرياضيات . وكان الاساتذة يتوافدون الى مراكز التعليم من مختلف الاقطار التي تتكلم العربية لا طمعاً في مغنم ولا جرياً وراء جطام وانما حبًّا في نشر افكارهم وتلقين معارفهم . ولهذا فقد كانوا أحراراً في القاء محاضراتهم لا يتقيدون برضا أمير ولا يخشون بطش جائر . وكان التزاحم بين الاساتذة على أشده فأقدرهم وأفقههم من جمع حوله اكبر عدد ممكن من المستمعين وكانوا يرحبون بالطلاب على اختلاف مللهم ونحلهم حتى ولو كانوا من الفقراء المعدمين الذين يعيشون على احسان المحسنين واكرام الباذلين

وكان القرآن أساساً لجميع ما كان يعلم في حلقات التعليم سواء أصرفاً ونحواً كان ما يعلم ام منطقاً ام عروضاً ام اي علم من علوم اللغة والكلام . ولا ريب ان اختلاف الاساتذة وتباين طرق تدريسهم وتشعب مادة الدراسة وعدم التفريق بين استاذ وآخر من حيث الجنسية أدى الى ايقاد شعلة الفكر في أدمغة كثيرين ممن كانوا يرتادون تلك المساجد . فقد كان الطلاب لا يترددون في الاستماع الى أستاذ من نيسابور ، ثم ينتقلون الى استاذ من سمرقند بعد ان

يأخذوا من الآن ما يريدون أخذه من دون ان يجد الطلاب والاساتذة عناصة في عملهم هذا ما دام جميعهم يتكلمون لغة واحدة ويبحثون في موضوع واحد ويشعرون شعوراً واحداً

فلسفة الاسلام

كانت علاقة القرآن بالفلسفة العربية كما كانت علاقة الانجيل بما كان يدرس في مدارس اوربا في خلال القرون الوسطى، فهو ركنها وعنه تستمد قوتها. والفلسفة العربية لم تكتسب الاجتهاد على القرآن بل رجعت كذلك الى تعاليم ارسطو تستمد منها مادة الجدل والمناقشة الدينية. وكان تأثير هذه التعاليم في فلاسفة المسلمين كبيراً جداً حتى ان ابن رشد ضمن اكثر تعاليم ارسطو في «كلياته». وكان يغالي فيها حتى اعتبرها بمنزلة التعاليم الروحية. واذا كان اساطين الفلسفة الاسلامية الذين بحثوا في ارسطو وبطليموس وجالينوس وأبقراط وعن الذين كانت تعاليمهم مستمدة من الافلاطونية الجديدة لم يكتفوا الستار عن كيفية تكوّن النظريات اليونانية وعن تطورها الا انهم عرفوا على الاقل كيف ينقلوا فحولوها الى العربية — لغة العلم والدرس يوم ذاك — حتى ذاع امرها بين طلاب المعرفة في مشارق البلاد الاسلامية ومغاربها وان جامعاتنا اليوم وان كانت لا تكترث لتعاليم الكندي والفارابي والفرغاني والخوارزمي وابن سينا والرازي والباطني وابن باجة واليبروني وأبي معشر وابن رشد الا ان جامعات اوربا خلال القرون الوسطى كجامعات باريس وبادوا ونابولي وبولونا ما كان يدرس اساتذتها غير تعاليم هؤلاء وغيرهم من الفلاسفة المسلمين. ولكي تصبغهم بالصبغة اللاتينية تسهل تداول أسمائهم على ألسنة الاساتذة والطلاب اتحفتهم اسماء لاتينية. وان ما فعلته اوربا في خلال تلك القرون من فلسفة ورياضيات وطب وكيمياء وفلك لم يكن الا من كتب نزحت عن العربية وقد ظلت تعاليم فلاسفة العرب مهيمنة على الجامعات الاوربية حتى اواخر القرن السابع عشر

لقد أدخل العرب على العلوم الرياضية الترقيم الهندي. واستعملوا الرموز بدل الارقام فابتدعوا بذلك علم الجبر ووضعوا المثلثات، كما انهم استعملوا الجيب عوضاً عن الوتر. ولا يتسع المجال هنا لايراد جميع ما أدخله العرب على العلوم الرياضية ويكفي ان نشير الى أن بحوثهم في هذا الميدان ما زالت على جانب عظيم من خطر الشأن. أما في الفلك فلهم بحوث ونظريات تشهد بمدى اهتمامهم بهذا العلم. وما زالت المصطلحات العربية مستعملة في علم الفلك الحديث. والعرب وان كانوا يمزجون بين علمي الفلك والتنجيم الا انهم أكسبوه بهجة علمية ووضعوه موضعاً رفيعاً بين العلوم. أما الكيمياء فقد انحدرت اليهم من مدارس الاسكندرية فأضافوا اليها كثيراً من مادتها واستعملوها في الطب والصيدلة وما زالوا يستعملون في تحوتنا الكيميائية كثيراً من الكلمات العربية. وانا وان نظرنا نظرة استخفاف الى ما كان يسمى اليوم الكيميائي العربي

من البحث وراء حجر الفلاسفة لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب خالص فان البحث العلمي الحديث أثبت امكان ذلك وان كانت الطريقة في ذلك غير الطريقة القديمة

وساعدت فكرة الارتياد عند رجال العلم جنباً الى جنب مع فكرة البحث العلمي فكان اكثر الأساتذة والعلماء رواداً يرتادون البلاد طلباً للعلم وللمعرفة . ولا تعزى كثرة ارتياد العرب الى التوسع التجاري فقط بل الى حبهم للعلم وللتثقيف كذلك . فقد كان الاساتذة مضطرين الى الارتحال من بلد الى آخر للتدريس وللاستفادة . ويجب ألاّ ينكر ان اللغة العربية بجمال لفظها وبكونها لغة القرآن كانت أقوى عامل في اجتذاب طلاب المعرفة من أقصى البلاد الاسلامية الى المراكز العلمية . ولم يكن يوم ذاك مركز أعظم شأناً وأرفع مقاماً من بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية التي فاقت بشهرتها العلمية كلاً من البصرة والكوفة المركزين الرئيسيين لعلوم الكلام . وكان أهل العلم يتوافدون على بغداد حتى ولو كانوا يجهلون لغة القرآن . فقد نزح الفارابي من مدينة أوترار المسماة قديماً فاراب من بلاد تركستان طلباً للعلم ، وكان يوم ارتحاله من البلد الذي ولد فيه لا يفقه من العربية شيئاً . فظل في مدينة حران يدرس في مدرستها الفلسفة اليونانية بمختلف مذاهبها على يد المعلم الصابئي المشهور والماطي . ثم ارتحل منها الى بغداد حيث وقف حياته على دراسة ارسطو وسافر أخيراً الى الشام تبقى فيها يعلم بجوامعها الكبير حتى وافاه الاجل عام ٩٥٠م

قصور الخلفاء مراكز للتثقيف

وبعد ما صفت شأن العباسيين وأصبح الخلفاء الدمية في أيدي مواليهم الترك ، انتقلت مراكز العلم من بغداد الى دمشق وحلب . فاجتذبت هذه المراكز الجديدة عدداً كبيراً من قادة الفكر ومن فلاسفة الاسلام وفي مقدمتهم الفارابي وابن سينا . وكان حذاق أشهر من درّس ارسطو ونقل الى العربية تعاليمه واشتهر ابن سينا أيضاً بنقله « القانون » أشهر كتب الطب القديم الى العربية . وكانت المكتبة العربية غنية جداً بكتب الاسفار وبمصنفات الرحلات وبمعاجم الجغرافيا وأشهر هذه الكتب معجم البلدان لياقوت الحموي الذي كان مولداً يونانياً ثم أسلم فتعلم في بغداد ، ورحلة الادريسي ورحلة البكري ورحلة ابن جبير وغيرها من الاسفار . وتلقب المسعودي أشهر مؤرخي العرب بهيرودوتس الشرق لكثرة أسفاره ورحلاته

وما يسترعي النظر ان مصر التي اشتهرت بمدرسة الاسكندرية العظيمة ، كانت دون البلاد الاسلامية الاخرى علماً وثقافة . ويظن ان السبب في ذلك اهتمام ولاة مصر بجمع الخراج وبارساله الى بيت المال دون انفاق ولو جانب يسير منه على البلاد ، ارضاء للخليفة . اكتساباً لعطفه ولتقديره . فلما تمكنت الاحوال لابن طولون الاستقلال في مصر جمع اليه اهل العلم ورجال الادب

وأخذ بهذه الحركة العلمية بكثير من ماله الخاص ومن جهده . ولم تكن مصر قبل ابن طولون على شيء من العلم والفن وكانت أولى البدائع الفنية التي ظهرت في مصر المسجد الذي بناه ابن طولون قرب القاهرة فكان في نظر المصريين تحفة نادرة مثال زخارفه وبأفنيته . المظنون ان المهندس الذي وضع تصميم المسجد وأشرف على بنائه قبطي الاصل لاستعماله الزخرفة في بناء المسجد . ومما يحقق ذلك ان جميع الابنية الاسلامية ولاسيما المساجد التي بنيت قبل هذا التاريخ كانت خالية من الزخرفة

والفن الاسلامي لم يبزغ فجره الا في القرن العاشر عند ما تأسست دولة الفاطميين بمصر وشجعت في البداءة كل التشجيع فنشأ من ذلك فن للعمارة اسلامي العلامح بلغ أقصى حدود الابداع في أبنية قرطبة وغرناطة وأشبيلية وفي غيرها من حواضر الاندلس

ومما امتاز به الفاطميون انهم نظروا الى النحت ولا سيما نحت التماثيل والهياكل البشرية نظرة تسامح ورضا وتشجيع حتى ان أحد وزرائهم سمح ان تنقش صورة غادة رائعة على جدران قصره . والمناحف الاوربية ملأى بالآثار الفاطمية التي تنطق ببلوغ تقدمهم في فني الرسم والنقش . وهذه الروح الفنية قللت كثيراً من تعصبهم الديني وأثارت في نفوسهم الميل الى الترف والبذخ فقد أجاز الامراء لنسائهم ارتداء الملابس المطرزة والموشاة بالذهب . ومما لاشك فيه ان تصور الخلفاء في العهد الفاطمي كانت مزدانة بالغالي والنادر من التحف الفنية . وان الخلفات التي تركها آخر خلفائهم — الخليفة المستعصر — والتي عبث بها جند الترك المحتلون للبلاد لأعظم دليل على عظم ثروة الفاطميين المادية والفنية

لقد باع الجند الغابت بمحتويات قصر الخليفة مقادير كبيرة من الاحجار الكريمة قدر وزنها بما يزيد على مائة كيلوغرام ، وعدداً ليس بالقليل من الأواني الزجاجية والذهبية المطعمة بالميناء وكذلك كمية من المجامر الذهب والفضة والعاج . كما انهم باعوا حشية موشاة بالذهب قيل ان الخليفة المأمون كان ينام عليها . واقتسموا جميع الهدايا التي قدمها أباطرة الرومان الى الخلفاء وعدداً ليس بالقليل من المرايا القولاذية ومن ألواح الشطرنج المغطاة بالحرير الموشى بالذهب ومن قطع الشطرنج المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس . ومما نهبوا عدد عظيم من زهريات الرخيص والنفيس المصنوعة من الذهب الخالص والخزف . وأغلى ما فرطوا فيه عمامة الخليفة التي كانت مزدانة بالاحجار الكريمة البالغ وزنها ثمانية كيلوغرامات . وكان في قصر الخليفة طاووس مصنوع من الذهب الخالص صيغت عيناه من الياقوت التي طعم ريشه بمختلف الاحجار الكريمة وكذلك كان فيه غزال من ذهب غطي جيده بعقود اللؤلؤ الغالي وشجرة نخل صيغت من الذهب صنعت عنوقها من الجواهر الكريمة . وكان للخليفة ثمانية وثلاثون زورقاً يستخدمها لتزهاته في النيل وكان اكبر امراء القصر مفروشاً بسجادة كبيرة نسجت في بلاد فارس ورصعت

عليها خريطة بلاد العالم . وكانت جدران ذلك البهو مغطاة بقطعة كبيرة من الدمقس رسمت عليها بالذهب صورة حديقة غناء احتوت عدداً من الفيلة

ومما يبدو الجيش الذخر مجموعة فاخرة من الاسلحة والسيوف والخناجر مطعمة مقابضها بالجواهر والاحجار الكريمة ، وكان لبعض تلك الأسلحة قيمة تاريخية كبيرة جداً فمن بينها درع للحسين بن علي (رضي الله عنه) ودرع لحمزة عم النبي وسيف للامام علي (كرم الله وجهه) عرف بذي الفقار . وكان للخليفة مجموعة فاخرة من الخيام الحرير المطرزة بالذهب قدر ثمن احداها بثلاثين الف دينار وكانت تعلو عن الارض عند اقامتها خمساً وستين ذراعاً ولا تحمل الا على مائة بعير

مصر في عصر الفاطميين

ولم يهتم الفاطميون بالناحية المادية من الحياة الاجتماعية فحسب بل وجهوا عناية كبيرة الى رفع مستوى الناحية العلمية كذلك فقد أسس الخليفة الحاكم بأمر الله داراً للعلم عام ١٠٠٥ للميلاد بمدينة القاهرة ليفسح المجال لدراسة جميع ما كتبه علماء الامامية وكانت تدرس فيها علاوة على ذلك علوم الكلام والعروض والقانون والطب والفلك — واسس فيها مكتبة ضمت جداً غنية بالمؤلفات النادرة وكانت هذه المدرسة كعبة لطلاب العلم في بلاد مصر وفي سائر الاقطار الاسلامية . وكثيراً ما اعتاد الخليفة الحاكم بأمر الله دعوة المدرسين في المدرسة لقصره للمباحثة والمناقشة يحضر منه ولا يصرفهم الا بعد أن يتصدق عليهم العطايا والهبات

رفع الخلفاء الفاطميون مقام مصر بين البلاد الاسلامية حتى احتلت محلاً رفيعاً بينها فصارت كلها هي العليا في البحر المتوسط . وكان لابن طولون اسطول صغير قوامه مائة سفينة الا ان هذا الاسطول الصغير ازداد وكبر حتى بلغ عدد سفنه في عهد الفاطميين ستمائة سفينة كبيرة في استطاعتها ان تجوب البحار وترتاد الامصار وتنقل تجارة الشرق الى الغرب . وبفضل هذا الاسطول استطاع الخليفة بمصر مشاطرة خليفة قرطبة سلطته بحر الروم . ومما اشتهر به المعز انه ازال الفروق الدينية بين الرعية فكان يعامل جميع الملل بالعدل والاحسان . وهو اول من سمح لغير المسلمين بتولي المناصب العليا في الدولة حتى انه استوزر يهودياً ومما يلاحظ ان معظم خلفاء الفاطميين قرب اليه غير العرب من الرعية وفتحوا ابواب قصورهم لاهل الفرس والروم والقبط فألفوا بذلك بين المسلمين وبين غيرهم من الرعية . ومما لاشك فيه ان تقدم الدولة الفاطمية هذا التقدم السريع وبلوغها الذروة الرفيعة من المجد كان له أثر بعيد في الحياة الاوربية . وكيف لا يكون ذلك والاساطيل الاسلامية التجارية كانت تنقل كثيراً مما تنتجه البلاد الاسلامية ومما يصنعه المهرة من ابناء مصر والاندلس لبلاد الغرب . والصلة التجارية أولى دواعي التمدن

ولم يقتصر تأثير العرب بالبحر المتوسط على شواطئه فقط بل عمَّ الجزائر العامة فيه. فقد دامت سطوة العرب على جزيرة مالطة زهاء قرنين — من منذ القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر — وما زالت اللغة المالطية حتى الآن تشهد بعظم تأثير اللغة العربية في أبناء تلك الجزيرة. ودامت للعرب كذلك جزيرتا ساردينيا وصقلية ودام حكمهم في هاتين الجزيرتين حتى أواخر القرن العاشر. وكان لفن الأندلسي في العمارة أثر بين في قصور صقلية وفي آثارها.

ولقد ظلَّ العرب يعلمون العالم الاوربي ثقافته وعلومه طوال القرن العاشر والقرن الحادي عشر، حتى ان ابنا الفرنسي سيلفستر الثاني لم يستمد ثقافته العالية الا من معلمين عرب ومن كتب اسلامية، وان ملوك صقلية فتحوا أبواب قصورهم للمسلمين ليستفيدوا من علومهم وليستمدوا من معارفهم. وان نفس الامبراطور فريدريك الثاني استقدم الادريسي، أعظم رجال العرب شهرة، الى بلاطه، وأكنه تقديراً لعلمه واعجاباً بشهرته

الثقافة العربية في صقلية

واشتهر فريدريك الثاني، من أسرة هوهنستوفن ومن أعظم ملوك صقلية، بأنهُ أعلم أهل عصره وأعلاهم ثقافة. ومما عمَّه هذا الملك العالم انهُ أقبل على تعلم العلوم العربية والفلسفة الاسلامية اقبالاً منقطع النظير. حتى ظنهُ أهل بلاده مرتدًّا عن المسيحية ومعتنقاً الاسلام. وعندما ارتحل الى بلاد بيت المقدس لمساعدة الصليبيين في حروبهم المشهورة استدل بأراقة الدماء معاهدة صداقة مع ابن أخي صلاح الدين متخذاً له أصحاباً واخواناً من اعلام المسلمين في بيت المقدس. وكان تأثير الثقافة العربية في نفس الامبراطور فريدريك عميقاً جداً حتى انهُ أحب اللغة العربية وصار لا يتحدث الا بها وارتدى الزي العربي واستبدل بعادات بلاده العادات العربية وكتب رسائل متعددة باللغة العربية الى الفيلسوف العربي ابن سبعين وناقشهُ أفكاره في ما وراء الطبيعة. واذا ما ذكر المؤرخون فريدريك الثاني فانهم يذكرون كذلك جامعة نابولي تلك التي أسسها ليكون ينبوعاً للعلوم العربية في إيطاليا. ومن أجل أعماله انهُ أرسل ميخائيل سكوت الى طليطلة لنقل حاشية ابن رشد على أرسطو الى اللغة الايطالية كما انهُ بذل جهوداً كبيرة لمساعدة جامعتي سيلارنو وبولونا حيث كانت تدرس العلوم الطبية العربية

على هذا النحو انتشرت الثقافة العربية في أكثر البلاد الأوربية وكذلك عمَّت العلوم العربية على جامعاتها. عمَّت المصنوعات الفنية الحريرية والزجاجية كما عمَّت التجارات الاسلامية أكثر المدن الايطالية. فكان المسافر لا يمر بمرفأ إيطالي الا وجد فيه فندقاً خاصًّا بالتجار العرب وبالفاديق في البلاد الاسلامية. وما زال أثر الثقافة العربية ظاهراً حتى اليوم في بعض المقاطعات الفرنسية المجاورة لبلاد أسبانيا، فان شارل مارتل وان واناه الحظ لصد العرب

الى ما وراء جبال البرينيه فقد خانهُ في منع تسرب ثقافتهم الى بلاد افرنسيس . والاغاني الشعبية لتلك المقاطعات ما زالت تشهد بأنها مستمدة من الالحان العربية القديمه

ولا نستطيع ان ننتقل من هذه الناحية من البحث ما لم نقل كلمتنا في العصر الذهبي الأندلسي فقد فاق هذا العصر سابقه عصر بغداد بسعة انتشار الروح العلمية وبلوغ مقام الفن الأندلسي . ويعزى العصر الذهبي الأندلسي الى ازدهار شعوب مختلفة وتبلور شعب واحد منها يحمل ثقافات متعددة . والعنصر العربي وان كان أظهر العناصر الفعالة في العصر الذهبي ببغداد الا انهُ كان عنصراً ثانويًا في العصر الاندلسي . فكان الاندلسيون خليطاً من بربر افريقيا وقوط أوربا ويهود أسبانيا . ومن الغريب ان الأمويين في الشام لم يكترثوا للناحية العلمية والفلسفية من المدنية بقدر ما اكترث لها حفدتهم في الاندلس عندما أحلوا العلم والفلسفة والآداب المقام السامي بين نواحي التمدن الاخرى

أرسطو يعود الى أوربا

كانت المدة بين العصر الذي عاش فيه أرسطو وبين ذلك الذي عاش فيه ابن رشد تزيد على خمسة عشر قرناً ، ولذا يصح لنا ان نقول ان فلسفة أرسطو استغرقت في سيرها من أثينا الى الاندلس مدة طويلة كما انها اجتازت مسالك وعرة كادت تقضي عليها لو لم يثبرها المسلمون . وكما ان المنطق كان الاداة التي اتخذها أرسطو لتفهم فلسفته كذلك كانت اللغة العربية الوسيط الذي نقل تلك الاداة من الامبراطورية الرومانية في الشرق الى باكتريا — تلك التي افتتحها من قبل اسكندر العظيم تلميذ أرسطو . وانتقلت تعاليم أرسطو مرة ثانية الى بلاد الغرب على يد ذلك الوسيط بعد ما خبت نار العلم فيه فأذكتها من جديد . وكان طبيعيًا ان تصطبغ فلسفة أرسطو بصبغات ثلاث هي اليونانية فالمسيحية فالاسلامية ، وان تدوّن بلغات عدة هي السريانية فالعربية فاللاتينية ، وان تضم اليها كثيراً مما كان يدين به المصريون والفرس والهنود . الا ان اللغة العربية استطاعت ان تحتفظ بالأصل فتنقله بأمانة وباخلاص الى أبناء أوربا مرة ثانية . ولا يخفى ان وحدة اللغة ووحدة الدين كانتا أكبر عوامل في حفظ تراث اليونان والرومان ونقله من الغرب وردّه ثانية اليه

ان اللغة العربية ، بآدابها العالية التي حببها الى نفوس الباحثين والتي سبقتها دائماً في مستوى اللغات الحية الاخرى ، أسدت أعظم خدمة الى البشرية عندما احتفظت بالتراث العلمي القديم في زمن كان فيه الغرب في ظلام دامس من الجهل ومن الأمية . وان سحر اللغة العربية ولشيع أبنائها بالروح العلمية كانا أعظم أسباب البعث العلمي الحديث